رحلة السفر للبحث عن الذات في رواية سفر السالكين لـ(لمحمد مفلاح)

A journey in Quest of Self in Novel of « Saffar Al- Salikeen» (Book of Pursuers) By : Mohammed Meflah

عيساني نزيهة*

جامعة طاهري محمد بشار(مخبر الدراسات الصحراوية)

(الجزائر)

nazihaaissani78@gmail.com

تاريخ الاستلام: .2022/01/25 تاريخ القبول: 2022/11/12 النشر: 2022/11/16

ملخص:

تروم الورقة البحثية إلى استجلاء تحولات الذات في رحلة السفر الصوفية، وذلك بالوقوف على الرؤية الفكرية التي يقوم عليها مفهوم الرحلة والسفر في الفكر الصوفي، والتي أفضت إلى أن المفهومين يصبان في دلالة عروج الروح وسفرها بينالمنازلالمختلفة، أين يسلك فيها المتصوف طريقا صعبا يُختبَر فيه الجسد والروح، لاكتشاف الذات وما يعتريها من أسقام تشكل حواجز في طريق سلوكها إلى الله تعالى.

فكانت الرحلة وسيلته التي اختارها طوعا للتطهير والخلاص من ظلمة الشهوات والمعاصي للوصول إلى إشراق ونور الطاعات التي تقربه من الحق تعالى،فكانت سفرا وتنقلا تدرجت فيه ذات الصوفي/ الشخصية الرئيسية في الرواية (سفر السالكين) بين الأحوال والمقامات للوصول إلى غاية الرحلة المنشودة لبناء الإنسان الكامل.

الكلمات المفتاحية:رحلة؛ سفر؛ ذات؛ سلوك؛ تصوف

Abstract:

The paper aims to clarify the transformations of the self in the Sufi journey, by standing on the intellectual vision on which the concept of journey and travel is based in Sufi thought, which led to the two concepts being indicative of the ascension of the soul and its trip between different Sufi stages, Where the Sufi takes a difficult path to testes the body and the soul, to discover the self and the ills it suffers constitute barriers in the way of its journey towards God Almighty.

The journey was his method that the voluntarily chose for purification and salvation from the darkness of desires and sins to reach the brightness and light of obedience that brings him closer to the Almighty God. It was a journey and moves in which the Sufi / the main character in the novel (Saffar al-Salikeen) alternated between states and mystical stations of reach the desired destination of journey to build a complete human being.

KeyWords: Journey; Travel ; Self ; Ascension ; Mysticism.

*المؤلف المرسل: عيساني نزيهة طالبة دكتوراه، الإيميل: nazihaaissani78@gmail.com

المقدمة:

الرحلة والسفر من السنن الكونية التي تلازم الإنسان،فحياته رحلة سفر تبدأ بالميلاد وتختم بالموت، وهذه إحدى معاني السفر التي قال بها **ابن العربي**:"يبقى الإنسان دائم السفر من لحظة الولادة إلى لحظة الموت" (أمال زعيم وآخرون، 2020، صفحة 458)فالإنسان في رحلة سفر وتنقل دائم من مكان إلى آخر ومن حال إلى حال عبر مسيرة حياته، وذلك هو المبتغى الذي أسعى لرصده وتتبعه في رواية السالكين لمحمد مفلاح، من خلال رصد التحولات التي رافقت الشخصية الرئيسية (الهاشمي المشلح) في رحلة سفره المادي إلى البراري والتي قادته إلى رحلة سفر في الداخل(الذات) بحثا عن تطهير الروح من أدرانها التي كبلت سيره إلى الله تعالى

إشكالية البحث:

كانت التساؤلات المطروحة ضمن البحث:

- ✓ ما خصوصية رحلة السفر للبحث عن الذات في الفكر الصوفي؟
- ✓ هل رحلة السفر الصوفية فردية أم مشتركة بين الجميع؟
- ✓ أ لرحلة السفر في البحث عن الذات نهاية تحدّها؟

ومن تمّ فإن الإجابة عن هذه التساؤلات كانت هي المنطلق الذي شكل مضمون الورقة البحثية.

أهداف الدراسة:

تسعى هذه المقاربة البحثية إلى تبيان الآتي:

- ✓ السفر جزء من رحلة الصوفي في جمعه بين سفر البدن والروح الضروريان لاستيفاء مراسيم الطريق الذي يسلكه إلى الله تعالى.
- ✓ الرحلة تجربة صوفية غايتها التطهير الذاتي الذي يفرض على السالك المريد، الانتقال المكاني، الزماني والنفسي، وتحول في الذات (التدرج في الأحوال والمقامات).
- ✓ رحلة السفر الصوفي في بحثها عن الذات لا تنتهي، ولا تستقر على حال أو مقام مادامت تنازع الصوفي روح وجسد يجمعان بين الخير والشر فيه.

منهجية البحث:

العمل البحثي يفرض إدماج الجانب النظري بالتطبيقي، ففي الجانب النظري تطرقت إلى شرح بعض المفاهيم الخاصة بالمصطلحات الصوفية التي يحتاجها الموضوع حتى تتوضح الرؤية والفكرة للمتلقي، وعززتها بالجانب التطبيقي باستلال بعض الشواهد السردية من رواية سفر السالكين بغية إظهار التحولات الذاتية للسالك المريد في رحلة سفره، وما يوافقها من مصطلحات في الفكر الصوفي. ليختتم البحث بأهم النتائج المستخلصة.

I. الرحلة والسفر في الدلالة اللغوية:

أستهلُ البحث بالتعريج على بعض الدلالات اللغوية لمصطلحي "الرحلة والسفر " للكشف عن المعاني اللغوية المتقاربة التي تشترك بينهما لأنهما مرتبطان بمجالات مختلفة أضفت عليهما معان لغوية متعددة.

1. الرحلة في اللغة:

الرحلة لفظة مشتقة من الفعل "رحل" وتدل في ظاهر معناها على الارتحال والتنقل، وقد وردت في معجم لسان العرب لـ(ابن منظور) بمعنى : "الترحل والارتحال: الانتقال، الرِحلة، الرُحلة: اسم للارتحال للمسير، والرُحلة بالضم القوة والجودة أيضا، وتروى بالكسر بمعنى الارتحال، وقال بعضهم الرحلة والارتحال والرحلة بالضم :الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، تقول: أنتم رحلي :أي الذين ارتحل إليهم" (إبن منظور، د ت، صفحة 1611)

2 السفر في اللغة

السفر لفظة مشتقة من الفعل "سفر" وتدل في معانيها الشائعة والمتداولة على التنقل وقطع المسافة من مكان إلى آخر، وهي تقترب كثيرا من المعاني اللغوية التي أوردها "ابن منظور" في معجمه لسان العرب عن الجوهري بأن:" السّفر قطع المسافة وهو جمع أسفار، والمسفر الكثير الأسفار القوي عليها، وسمي المسافر مسافرا لكشفه قناع الكنّ عن وجهه ومنازل الحضر من مكانه، ومنزل الخفض عن نفسه وبروزه إلى الفضاء. وسمي السفر سفرا لأنه يسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم، فيظهر ما كان خفيا (إبن منظور، د ت، صفحة 2024) وفي ذلك يتقاطع المعنى نفسه مع قول الشخصية الرئيسية في الرواية (**الهاشمي المشلح**) مبينا فائدة السفر لوالدته: "قلت لها: السفر كما قال شيخي يسفر عن معدن الإنسان الحمد لله الذي هداني إلى الطريق" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 100).

كما أنه جاء بمعنى الكشف والظهور والنور" وسفر الصبح: أضاء، وأسفر القوم: أصبحوا، وأسفر: أضاء قبل الطلوع، وأسفر وجهه حسنا وأسفر أشرق. (إبن منظور، د ت، صفحة 2025) ، كما ذكر ابن منظور عن التهذيب : يقال سافر الرجل : إذا مات (إبن منظور، د ت، صفحة 2024)

وجاء في معجم مقاييس اللغة: بمعنى السين والفاء والراء أصل يدل على الانكشاف والجلاء من ذلك سمي بذلك لأن الناس ينكشفون عن أماكنهم" (سعاد حكيم، 1981، صفحة 580)

فمن خلال الدلالات اللغوية للمصطلحين يتكشف ذلك التواشج والتداخل الجليّ بين المفهومين، والذي يصل إلى حدّ الأخذ بهما على معنى واحد في اعتبار الرحلة والسفر سيان، في بحث المتصوف عن ذاته بغية سلوك طريق يختبر فيه الروح والجسد في قدرتهما على تجاوز الصعوبات، والعوائق التي تحول دون وصوله إلى القرب من الله تعالى. وعود على بدء فإن كانت الرحلة والسفر تصبان في معنى التنقل، قطع المسافة ، الكشف والإشراق فما مدى ارتباط هذه المعاني اللغوية بدلالتها الاصطلاحية في الفكر الصوفي؟

II. الرحلة / السفر في الفكر الصوفي :

أسفرت الدلالة اللغوية على تواشج شديد بين مصطلحي الرحلة والسفر في دلالتهما على الانتقال، وقد ارتبطت أيضا بمعنى الموت في الإشارة إلى انتقال أبدي إلى العالم الآخر، فبين انتقال دنيوي مؤقت وأخروي أبدي

تشكل المفهومان في الفكر الصوفي على اعتبار أنّ الرحلة "تمثل رؤية كونية تفسر الوجود وأبعاده وتكشف عن المبدأ والمنتهى وفق تصور عرفاني خاص" (وفيق سليطين، علي ديوب، 2018، صفحة 64_65) فهي تأخذ تصورا خاصا عند المتصوفين ، لأنها منطلق الطريق الذي يسلكه المريد السالك للأخذ بمبادئ التصوف، ففيها يكمن الاختبار والكشف عن معدن المريد ومدى قدرته على الامتثال والطاعة والالتزام بالشروط، وفيها تبتلى إراداته وصلابتها في تجاوز القيود المكبلة لتكون بذلك " وسيلة لتجاوز القوقعة الاجتماعية وأداة لتكسير جدارها الصلب، واختراق محيطها المغلق، فالصوفي ينشد بها انتزاع نفسه وتجربته من المكان القامع الذي يفرض عليه أن يكف عن أن يكون ذاته" (وفيق سليطين، 1996، صفحة 153) فالرحلة(السفر) ثورة للتغير من الخارج إلى الداخل ،وذلك بالارتحال و قطع الصلة بالمكان الذي أثر على الروح لتتطهر من دنسه واللوث الذي علق بها منه، وفي الوقت نفسه تتطهر بإضناء الجسد في مكابدته الأهوال والمشاق في الأسفار المتعددة ،وفي ذلك يظهر أن السفر جزء من هذه الرحلة التي جمعت بين سفر مادي (ارتحال) ومعنوي (تطهير) ليوافق تعريف**القيشري**في رسالته إذ يقسمه إلى قسمين " سفر بالبدن: وهو الانتقال من بقعة إلى بقعة ، وسفر بالقلب : وهو الارتقاء من صفة إلى صفة، فترى ألفا يسافر بنفسه وقليل من يسافر بقلبه" (أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري، د ت، صفحة 246)فالسفر البدني(المادي) مطلوب في رحلة السلوك إلى الله تعالى، فلا غنى للصوفي عن السياحة في البراري وزيارة القبب والأضرحة والشاهد السردي في رواية (**سفر السالكين**) يؤكد ذلك : "فمال إلى التصوف ولازم الحاج العربي الشيلي وصار منشغلا بالحضرة الصوفية وزيارة القبب والسياحة عبر البراري أصبح من جماعة الدراويش السياح.ياله من مجنون!" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 50) و يورد الراوي في مقطع آخر عن السفر البدني المادي: " كانت قلقة عليّ من أسفاري الكثيرة إلى المدن والبراري" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 99) فرحلة السفر تأشيرتها الأولى تنقية الجسد بحمله على تكبد مشاق السفر والتنقل المضني بين الأمكنة والسياحة في البراري حتى يعبر بالذات إلى التأشيرة الثانية وهي تنقية الروح وبذلك " تتضح الوظيفة التطهيرية للرحلة من حيث هي تبديد لكثافة الجسد، وقطع لروابطه وعقباته، والمغامرة به في السبل الموحشة والمهولة والمحفوفة بخطر الموت والهلاك، من أجل تنقيته وتأمين العبور من خلاله إلى الوجود الأكمل" (وفيق سليطين، 1996، صفحة 160)فتطهير الجسد مؤشر العبور إلى تطهير الروح من خلال سفر معنوي محله القلب، فهو المقصود والوجهة التي يريدها الصوفي في رحلة سفره، لتجليته وصقله وإزالة ما علق به من ران الغفلة والذنوب والشهوات والمعاصي "فالذات في سفرها في العالم أو رحلتها إلى فوق إنما ترمي إلى النقاء والتطهر، إلى الانصهار بلهب العالم والتجربة، والخروج من ذلك كله أكثر نقاء وتجدد العزيمة في مواجهة الحياة" (نذير العظمة، 1982، صفحة 51)بهذه الرؤية تصبح الرحلة(السفر) وسيلة وغاية في الوقت نفسه ،وسيلة للتطهير وغايتها التطهير لتجسيد الدلالة الصوفية للسفر القلبي الذي عرفه **محي الدين بن العربي** بقوله أنه: " توجه القلب إلى الحق تعالى بالذكر أي أن السفر يكون بالقلب والروح لا بالبدن وهو انتقال بين المقامات والأحوال في الطريق إلى الله عزّ وجلّ بواسطة المجاهدات والرياضات النفسية والروحية، ومن تم فهو قسمان: سفر بالبدن وسفر بالقلب ،فالأول عام وأما الثاني خاص بالمتصوفة إذ المعرفة عندهم ذوقية محلها

القلب." (أمال زعيم وآخرون، 2020، صفحة 452_453) جوهر الرحلة (السفر)هو القلب/ الروح في سموها وترفعها عن ملذات الدنيا وشهواتها ومجاهدة النفس لتحلق الروح خفيفة منتشية في ملكوت الصفاء، وذاك هو الإحساس الذي يصفه **الهاشمي المشلح**: "لمت نفسي على غفلتي السّابقة. كيف قضيت حياتي الماضية بعيدا عن هذه المعالم التي تشحن النّفس بمشاعر قوية تسافر بك إلى ملكوت الصفاء" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 95) ويؤازره فيه رفيق دربه ومرشده إلى عالم التصوف **العربي الشيلي**:" أردت أن أنصحه بالتخلي عن الكتيب الأصفر والاستعداد للسفر في لحظة أبدية لم تخطر له على البال، ولكنني خشيت من ردة فعله. فهو لم ينضم بعد إلى الطريقة، وقد تكون ملاحظتي سببا في نفوره من طريق الحق" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 64_65) تشير دلالة المقطعين إلى الثمرة التي حققها المتصوفان(**الهاشمي المشلح** ورفيقه في المسلك **العربي الشيلي**) وهي التلذذ بالصفاء الروحي ونشوة القلب، وتلك حالة من الأحوال التي يستشعرها المتصوف في مراحل رحلته، وبهذا عرف الحال بمعنى "ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمل ولا اجتلاب كحزن أو خوف أو بسط أو قبض أو ذوق، ويزول بظهور صفات النفس سواء يعقبه المثل أو لا فإذا دام وصار ملكا سمي مقاما(عبد الرزاق الكاشاني، 1992، صفحة 81)

فلأجل هذه اللحظة الأبدية قدّم (**الهاشمي المشلح**) الغالي والنفيس لاكتساب المعرفة الحقة التي تكشف له الحجب وتحقق له الفناء والذوبان في ملكوت الصفاء. لحظة سفر كان منطلقها رحلة وهي تجربة صوفية" تعرف بالحال وهي سمو روحي يتصل به المتناهي باللامتناهي وبه يشرق له ويفيض عليه العلم الذوقي (علاء جعفر حسين وأخرون، 2015، صفحة 215) ولاكتشاف كنهها وخصوصيتها نسافر في دروبها لمعرفة المنازل التي تدرج فيها **الهاشمي المشلح** ، بتتبع مسارات التحول والتغيير في البحث عن الذات التائهة والضائعة في عالم مادي طغى على شفافية الروح.

III. مراحل الرحلة والتجربة الصوفية:

1. ما قبل التجربة الصوفية (الليالي المظلمة للروح):

يستهل **الهاشمي المشلح** السرد عبر سفر ذاكرتي، متنقلا بين يومياته الروتينية مذ أحيل إلى التقاعد في قوله:"حين أحلتُ على التقاعد في شهر جانفي، صرت أقصد السوق المغطاة فابتاع منها ما توصيني به زوجتي من خضر وفواكه ولحم وحوت." (محمد مفلاح، 2014، صفحة 06) وفي سياق سردي آخر يقول: "كنت لا أغادر شقتي التي سكنتها مدة عشرين سنة إلا في حدود الساعة التاسعة صباحا،أتوجه إلى مقهى السعادة المحاذي للساحة الكبرى، وأجلس على كرسي بلاستيكي أبيض بعدما أشتري جريدة باللغة العربية من كشك سي الحاج عبد القادر،ثمّ أتناول قهوة براس وأنا أطالع الجريدة." (محمد مفلاح، 2014، صفحة 06) **فالهاشمي المشلح** يعرض يومياته في زمان ومكان محددين ليتقاطع مع السيرة الذاتية في التأريخ لحياته بعد إحالته على التقاعد بذكر تفاصيل وجزئيات تدخل القارئ في حيثياته اليومية، وكان الحدث الأهم الحادث المشؤوم" لم أنس الحادث المشوم (...)سيارته الكات-كات" الضخمة الفخمة التي تسبب في تشويه خدي الأيسر وبتر جزء من صوان أذني

اليسرى(...) التي دهستني في شارع البلدية في ذلك اليوم المشؤوم ،10ماي 2012 الذي أصبح وشما غريبا في ذاكرتي المرهقة" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 10) حفر الحادث المشؤوم في ذاكرة الهاشمي المشلح كالوشم وصار جمرا يتقد في نفسه كلما توهج ذكره،فأقلق الروح والذات ونفث فيها مشاعر سلبية دفعته إلى التقاعد المسبق.

كان تقاعده هروبا من مواجهة النّاس بشكله المشوه،فآثر اعتزالهم والانكفاء على الذات،فكان ذلك بداية الدهليز المظلم الذي سلكه الهاشمي وألقى بعتمته على الروح حقدا وبغضا"أصبحت بعد إحالتي على التقاعد المسبق شخصا متوحدا مهموما،ولي رغبة دفينة في الانتقام من كل شخص أعتقد أنه أساء إلي أو تخلى عني في أوقات الشدة،وبخاصة أيام المحنة القاسية التي تعرضت فيها لحادث السيارة المشؤوم (محمد مفلاح، 2014، صفحة 07) تأزمت النفس ودخلت في حالة من الاغتراب النفسي" الناتج عن انعدام الصلة بين الفرد وجزء حيوي وعميق من نفسه أو ذاته وقد يكون اغترابا عن قيم مجتمعه لانعدام تفاعله عاطفيا وفكريا مع تلك القيم" (أحمد علي فلاحي، 2013، صفحة 122)فقد **الهاشمي** تواصله مع ذاته، فانعزل عن مجتمعه وانطوى على الذات، لكن عزلته كانت أشد من أن تحتمل، وقال معبرا عن إحساسه بمرارتها"ما أقسى العزلة التي اشتدت حدّتها عليّ منذ اللحظة التي أحلت فيها نفسي على التقاعد المسبق عزلة غريبة تقتات من صبري(...) حتى المشي وحدي ظل يحرق أعصابي ويشحنني حقدا على كل النّاس(...)لا أخفي سرا إذا قلت بأنني كرهت أقاربي وأصدقائي السابقين وزملائي الذين لم يزوروني(...)" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 08_09)ويضيف قائلا: "منذ إحالتي إلى التقاعد ازددت بعدا عن جيراني(...) كرهت لقاءاتهم بل قاطعتهم وامتنعت عن حضور حفلاتهم ومآتمهم " (محمد مفلاح، 2014، صفحة 27) شكل التقاعد المسبق بؤرة الأزمة التي دفعت **الهاشمي المشلح** إلى عزلة اجتماعية اختيارية" تبدأ هذه الحالة باختيار الشخص البقاء بمفرده لبعض الوقت بسبب تعرضه لصدمة ما أو موقف معين أثر فيه سلبا وزعزع إيمانه بذاته لكن مع الوقت تزداد مشاعر الإحباط والحزن والألم، وتزداد معها حالة العزلة حتى يبتعد الشخص تماما عن كل معارفه وعلاقته الشخصية" (إيمان عماد، 2018) اختار **المشلح** العزلة حين عجز عن بناء علاقات اجتماعية تفاعلية مع المحطين به، فتبنى حيالهم نظرة تشاؤمية عبر عنها بالكراهية والحقد والبغض وهذه إحدى المظاهر الاجتماعية التي "تستخدم غالبا للضغط على الشعور بالعزلة و إسكاته، ولكن الأثر النهائي الذي تتركه هذه الوسائل أيا كان الأمر هو مضاعفة هذا الشعور، وعدم الفهم" (نيقولاي برديائق، 1960، صفحة 120) تضاعف شعوره بالعزلة القاسية وازدادت حدتها شدة لتغلف الروح والذات بسواد البغض والكراهية والانتقام ، وتدخل صاحبها (**الهاشمي المشلح**) في دهليز مظلم لأن " الشعور بالعزلة الحادة يميل إلى أن يجعل كل شيء آخر يبدو غريبا معاديا، وحينئذ يشعر الإنسان أنه غريب متوحد لا وطن روحيا له (نيقولاي برديائق، 1960، صفحة 115) غربة واغتراب وتوحد تلك هي الآثار السلبية لعزلة الذات وسجنها .

فالاغتراب النفسي أفقده الإحساس بالمكان/المدينة" شعرت بالغربة القاتلة في مدينتي التي لم تعد جذابة كما كانت في الزمن البهي الذي نشأت فيه بين الأحياء الشعبية الصاخبة،والملاعب الترابية الفسيحة(...) كل شيء تغيّر فيها تشوهت بناياتها القديمة (...)" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 07) يسافر عبر ذاكرة الاسترجاع ليوثق

لتحول الزمكان وتشوه حاضره،يثير في النفس حنينا للزمكان الذاكراتي وبذلك يبرر لشعوره بالغربة القاتلة في مدينته التي لم تعدْ جذابة كسابق عهدها، ويستثير مشاعر القارئ أكثر بأنسنة المكان وتوصفيه بالنعوت الأنثوية ليستجدي العطف والشفقة على شحوب المدينة وتقلب حالها، وصف مكاني كثف شعوره بالاغتراب المكاني وسخطه على وضعه البائس، وهذه بقعة سوداء أخرى لوثت الروح والذات وغاصت بهما في عمق الدهليز المظلم.

تضافر الزمكان والأشخاص على تضعيف الإحساس بالاغتراب والعزلة،فلم يخف **الهاشمي المشلح** سخطه على كل شيء وبغضه للناس تصدعت علاقته بهم بعد الحادث،لأنه في نظرهم مغرور ومنطوي " كنتُ ازدادُ غما كلما تذكرت عبد الحليم الزغبي وغيره من الأصدقاء السابقين الذين ناصبوني العداء بعدما حمّلوني مسؤولية بطالة أولادهم.تبا لهم!(...) وطنت نفسي على الانتقام منهم جميعا . لم أعدْ أميّز بينهم صاروا في نظري كتلة واحدة " (محمد مفلاح، 2014، صفحة 09)ران على قلب المشلح سواد الحقد والبغض على الناس برمتهم ،مشاعر أعيته وطفت على جوارحه(نظرة حاقدة ولسان سباب شتام) ويعترف بذلك (ألقيت نظرة حاقدة على السيارة(...) حتى لساني تمرد وصار عنيفا) (محمد مفلاح، 2014، صفحة 11) تفشت عدوى العتمة في الروح والقلب ،وألقى الظلام بسواده على المشلح باطنا وظاهرا،فلم يعد يخفي الحقد في قلبه بل ترجمته النظرات واللسان لعنا وشتما، انغمس في عمق الدهليز المظلم ودثره السواد ،وأوصد منافذ القلب والحواس.

صار **الهاشمي المشلح**مهمشما بعد تقاعده، أفل ذكره بين الناس،وانصرف عنه و زوجه **الجوهر** أصحاب المصالح والمحابين "لما غادرت وظيفتي أصبحت على هامش المجتمع الصاخب (...)لم أعد ذلك الشخص المهم الذي يقصده الناس لقضاء حوائجهم،انتهى دوري بل انتهت حياتي، لما تفطنت جوهر إلى وضعي المحزن شعرت هي أيضا بأنها منبوذة،انقطعت عن زيارتها النساء الراغبات في قضاء حوائجهن" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 09)استسلم **الهاشمي** لوضعه المحزن والبئيس،ركن إلى نظرة التهميش والنبذ،واقتنع أن مهمته في الحياة قد انتهت تأزمت حياته وأموره حتى وصلت إلى ذروتها،اصطبغت الروح والفكر بالظلام ،استحال **الهاشمي** إلى شخص مصاب بآفة السواد وهو في ذلك يتقاطع مع صورة الرجل في عتبة الغلاف، يصبغه السواد ،مطموس الملامح ، لون أسود يفصح عن دلالته التي لامسناها من تتبع حياة **المشلح** بعد التقاعد الذي أسميته الحدث البؤري أين انعطفت حياة **المشلح** نحو الدركات السفلى، وانغمس في العتمة وأحاط نفسه بسياج من الكره والحقد والانتقام لتصب برمتها في الدلالة السلبية للون الأسود، كأن أيام **الهاشمي** حداد لا ينتهي (مقهى،ثم عودة منه، غداء ثمّ صلاة، فنوم) وهكذا تتوالى أيامه الكئيبة "أقوم بكل هذا النشاط دون أن أكلم زوجتي التي تظل في أغلب الأحيان تراقب حركاتي البطيئة وكأنها تقول لي: لو بقيت في وظيفتك لكنت رجلا سعيدا" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 27) وكأن **الهاشمي** جثة تتحرك بلا روح وشغف للحياة،تسير عجلة أيامه المتثاقلة في خط أفقي مستمر،وهذه المرحلة من الرحلة يصطلح عليها في التصوف بـ" الليالي المظلمة للروح الليالي المظلمة للروح أو Dark Nigths of the soul ،وهي تمثل قمة التأزم النفسي ونهايته التي تعبد الطريق صوب التأحد الصوفي " (سهام خضر، 2010،

صفحة 173) ففي رحلة السفر نحو تجربته الصوفية عاش الهاشمي عزلة قاسية أزمت النفس و أظلمت بها الروح، وهي مهاد عبّد له طريق التغيير والفكاك من شتات الروح وتيه الذات في فضاء الاغتراب.

فنواميس الكون تقول أن الظلام يولد منه النور، انفرجت الحلقات المستحكمة وأشرقت شمس التغيير في حياة **الهاشمي المشلح**، هذه اللحظة التي قال عنها :" كانت بداية تغيري هذا،منذ اللحظة التي التقيت فيها بصافي المايدي وأنا في مقهى السعادة (...)شعرت بتغير مفاجئ زلزل كياني كله،وكان بسبب جنون هذا الشيخ الغريب" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 12) التحم الزمن(عيد النصر) والمكان (مقهى السعادة) ،نصر /سعادة ليخلقا لحظة تغيير أبدية في مسار حياة **الهاشمي المشلح**،نسفت مشاعره السلبية "وقد كاد الحقد يسحقني لولا لقائي مصادفة ببصافيالمايدي وأصدقائه" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 27) وانتشلته من رتابة أيامه الباردة والميتة، انتعشت بها الروح وبعثت فيها بعضا من الضياء"أشكر بصافي المايدي الذي أنقذني من رتابة أيام هذا التقاعد فتحررت من نفسي،لقد أسهم هذا الشيخ الأنيق في تغيير حياتي فلم تعد كالحة كما كانت،كيف تمردت على نفسي الحائرة فتحررت منها ومن زوجتي،ثمّ من النّاس ،كلّ النّاس" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 12) صدفة لقاء غيرت المسار الرتيب في حياة **المشلح** وانعطفت به نحو التحرر والانعتاق من قيد نفسه وزوجته والناس جميعهم،وهذا ما كان ينشده ،الخلاص من ظلمة الروح والتيه واغتراب النفس والبغض والانتقام ،تخفف من بعض الثقل الجاثم على قلبه" انظري إليه ،لقد تغير الرجل.حمدت الله على عبارة:لقد تغير الرجل،إنّها العبارة التي كنت أريد أن أسمعها من هذه الزوجة التي قيدتني بمطالبها المادية(...) ثمّ انفجرت باكيا .رغم ذلك شعرت بأنّني تحررت ولا أحد بعد اليوم سيقف في طريقي" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 31_32) حدث ما كان يصبو إليه **الهاشمي المشلح** وهي لحظة إشراق الروح بالتحرر من القيود في مرحلة من رحلة التغيير تنعت باللوائح والتي "تظهر للسالك كالبرق، أي تظهر وقتية ثمّ تزول حالا، فتشرق بها نفسه لحظة ثم ما تلبث أن تسكنْ" (حسن شرقاوي، 1987، صفحة 248) إذ كان همّ **الهاشمي المشلح** هو التغيير والتحرر من القيود ،والخلاص من رتابة أيامه الكالحة والخروج من حلقة حياته المغلقة" كنت منشغلا بأمر طارئ وهو كيف أنتقل من حياة تسيطر عليها مطالب زوجتي فقط،إلى حياة منفتحة على كل المغامرات.أحببت أن أكون حرا مثل بصافي المايدي" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 28) وتحقق الانتقال من السيطرة إلى الحرية ويشهد على ذلك الفاعل في تغييره **بصافي المايدي**" لاحظت أنّ الهاشمي المشلح قد تخلى عن عاداته السابقة ،بل أهمل بعض واجباته العائلية وصار قلبه يهفو إلى مجالسنا اليومية في الساحة الكبرى.كانت جماعتنا تُعرف بـ "أصحاب مقعد القرانيت". اندمج فينا بسرعة.نسي همومه الصغيرة،وتحوّل شيئا فشيئا إلى شخص مرح يعشق الشعر الملحون والأغنية البدوية" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 35) من المقهى إلى الساحة الكبرى اتّقدت جذوة التغيير في باطنه، وانفتح على جماعة مقعد القرانيت الستة واندمج فيهم،فامتلأت روحه مرحا وحبا للطرب البدوي،ذلك العالم الذي ولجه على يد **بصافي المايدي**،صار مدافعا عن هذا التراث وأعلامه، ولكن هل هذا هو التغيير الذي ينشده **الهاشمي المشلح**؟،هل تحررت ذاته فعلا؟ هل حقق السعادة بالغناء البدوي والشعر الملحون؟.

2. مراحل التجربة الصوفية/ التحولات:

1.2 انفصال عن الطرب واتصال بالتصوف :

تغير "الهاشمي المشلح" ومال إلى عالم الطرب البدوي ولكنه لم يكن التغيير المنشود، ولا الخلاص المرغوب للتحرر من همومه وواقعه المأزوم، لازالت العتمة تلقي بظلمتها على الروح، بوصلة التغيير لم تتحدد وجهتها بعد، فما تحتاجه الروح/الذات يفوق نشوة الطرب البدوي المؤقتة والشعر الشعبي، إنها تطلب نشوة أبدية تتغلغل في عمقها، وتطهرها من أدرانها وتخفف العبء عنها، وتسد ثغرة النقص التي تعتريها فتصفو وتسكن للراحة والطمأنينة.

وجاءت لحظة الاجتباء والتي تعني: "جذب الله تعالى للعبد إلى حضرة قدسه بحكم الفضل والجود والعناية بلا تقدّم سبب من العبد" (علي حرازم المغربي برادة، 2017، صفحة 147) اختاره الله تعالى لخوض غمار تجربة صوفية فمال إلى مرافقة **العربي الشيل**ي من مريدي الطريقة الخضرية الفاتحوية، فاجتمع الاجتباء ودوافع التوجه نحو التصوف لأنّ" ما في الحياة اليومية من تعاسة وقبح ومظالم تكره الإنسان على أن يلوذ بعالم آخر، عالم التأمل الميتافيزيقي أو الصوفي" (نيقولاي برديائق، 1960، صفحة 38) فالنزوع صوب التصوف له دوافعه ومبرراته التي جعلت منه طوق نجاة **للهاشمي المشلح**، أنقذهمن شعوره بالاغتراب في واقع وحاضر متردي حال دون تحقق ذاته، مجتمع فاسد تداعيات الحادث المشؤوم والتقاعد المسبق، لهذا كله بدّل المسار واختار السير في الطريق الروحاني بحثا عن تحقيق التوازن و الانسجام مع نفسه وواقعه "ثمّ أحب مصاحبة الحاج العربي الشيلي لزيارة الأضرحة" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 35) وجد في صحبة **العربي الشيلي** الارتياح النفسي وصفاء الروح ونقائها من لوث العالم المادي وكدرته، انفصل عن واقعه المتناقض المتنافر واتصل ب واقع تملؤه الطمأنينة والسكينة والاستقرار.

استفاق من الغفلة والانغماس في الماديات وشهواتها، معلنا " **التوبة–conversion**" التوبة التي قال عنها ابن العربي: "هي أول منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الطالبين، وحقيقة التوبة في اللغة الرجوع والمراد في الشرع الرجوع عما لا يرضاه الله تعالى" (سعاد حكيم، 1981، صفحة 242) صدف **الهاشمي المشلح** عن عالم الطرب البدوي ومال إلى عالم التصوف الذي أرشده إليه صاحبه **العربي الشيلي** وهنا يتضح جليا ما للصحبة من فوائد جمة في رحلة السلوك إلى الله تعالى لأنّ "أمرها عظيم في السير إلى الله تعالى (أحمد بن عجيبة الحسني، د ت، صفحة 126) .انتشله من الغرق في حب الغناء والشعر ونهض به إلى اليقظة والتوبة عنهما وهذا الذي نتج عنه " الإحساس«بالميلاد مرة ثانية» وهي ولادة معنوية جديدة تشكل نقطة البدء في الحياة الصوفية الجديدة،التي هي طريق روحي تطهري قائم على قطع الصلات الصوفي بالعالم وإضعاف ذاتيته حد التضاؤل والفناء في مقام التأحد الصوفي الذي يعطيه الكشف واليقين ويدفعه في هذا الطريق نزوع الحب الإلهي الذي يعقب ويلغي حالة الاضطراب والتشتت الذهني ليستبدلها بالصفاء الروحي" (سهام خضر، 2010، صفحة 174_175)

اتضحت الرؤية والوجهة **للهاشمي** وسار في طريق البحث عن حبّ آخر يحرك روحه الراكدة وينعشها، ويلغي التشتت والقلق، وذاك ما عبر عنه **بصافي المايدي**"حيّرني سلوك الهاشمي المشلح منذ اليوم الذي رافق فيه الحاج العربي الشيلي إلى زاوية حي العبادة،ثمّ صار ينتقل من حضرة صوفية إلى أخرى ومن زيارة ضريح إلى آخر، وبمرور الوقت تخلى عن ملابسه العصرية،و أصبح يرتدي عباءة فوقية ناصعة البياض ويعتمر قبعة لا تفارق رأسه" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 37) ويسرد أيضا **الهواري البني** تحولاته قائلا: "الغريب أنّ صديقنا الجديد الهاشمي المشلح هو الآخر سحره بصافي المايدي، وصار مثله من عشاق الشيوخ البدوي(...) ولكنه سرعان ما قفز إلى عالم آخر، فمال إلى التصوف ولازم الحاج العربي الشيلي و صار منشغلا بالحضرة الصوفية وزيارة القبب والسياحة عبر البراري" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 50) أول مدارج السلوك بدأت بزاوية حي العبادة – التي يزورها لأول مرة– أين تمارس طقوس الحضرة الصوفية " الهاشمي المشلح نفسه–كما روى لي فيما بعد– لم يتمالك نفسه فنهض واندمج بين إخواني الفقراء،وقد عبّر لي الرجل الطيب عن تعجبه من الحال التي تلبسته،ثمّ ابتسم لي قائلا لي بمحبة: تمنيت لو لم تنته تلك الحضرة.وفي اليوم التالي انتسب إلى الطريقة الخضرية الفاتحوية، وصار من فقراء زاويتنا" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 69) اندمج **المشلح** في الحضرة الصوفية التي يعرفها المتصوفة بـ"حضور القلب مع الرب. وهي على ثلاثة أقسام حضرة القلوب،وحضرة الأرواح،وحضرة الأسرار.فحضرة القلوب للسائرين وحضرة الأرواح للمستشرفين ،وحضرة الأسرار للمتمكنين". (أحمد بن عجيبة الحسني، د ت، صفحة 67) واعترته فيها حالة عجيبة و اهتزت مشاعره نشوة ولعلها قبسة من الوجد، هذه اللحظة التي لا تكون " إلا لأهل البدايات؛لأنه يرد عقيب الفقد فمن لا فقد له لا وجد له "(عبد الرزاق الكاشاني، 1992، صفحة 317) لامست قلبه ووجدانه، وأشعلت فيه مشاعر لم يتذوقها قبلا ، هي ما كان يفتقده وتبحث عنه الذات، حرّكت فيه شوقا إلى الله ودفعته ليصير من فقراء الطريقة الخضرية الفاتحوية.هي خطوة تنبئ بأن النور بدأ يشع و يسري في روحه نحو اجتثات ظلمتها وإزالة العتمة لتحقيق التطهير المنشود، وإرواء العطش " إلى ما يبلغه إلى المطلوب،ويروحه بشهود المحبوب"(عبد الرزاق الكاشاني، 1992، صفحة 315)، بيد أن الطريق مسالكه صعبة وشاقة للوصول إلى الكمال في تهذيب النفس والسمو بها إلى معارج الملكوت، أين يتم تحقيق الكشف والحلول .

2.2 التزامات المجاهدة النفسية :

أخيرا وجد **الهاشمي المشلح** ضالته التي تخلصه من الاغتراب النفسي والمكاني، أسَرتْه روحانية التصوف فصار من المريدين وهو بمفهوم المتصوفين "الذي صح له الابتداء وقد دخل في جملة المنقطعين إلى الله تعالى بالاسم، وشهد له قلوب الصادقين بصحة إرادته ولم يترسم بعد بحال ولا مقام فهو في السير مع إرادته" (نظلة الجبوري، 1999، صفحة 24) فانتسب للطريقة الخضرية، ثمّ قطع صلته بحياته السابقة، منذ تلك اللحظة نذر نفسه للحضرات الصوفية وشدّ الرحال لزيارة القبب وأضرحة الأولياء الصالحين "أصبح قلبه مشغولا بمحبة شيوخ الطرق وزيارة أضرحة الأولياء" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 76) هذا الشغف بحب التصوف أوجب عليه مجاهدة النفس و إفناء كل رغبة جسدية أو شهوة نفسية بالتخلي عن ملذات الدنيا ومتعها المادية، و إنفاق الوقت في

الرياضة النفسية وذلك بـ" تهذيب ومخالفة وتربية وتأديب النفس بقصد الوصول بها إلى مكارم الأخلاق (حسن شرقاوي، 1987، صفحة 163) فالصوفي/**الهاشمي المشلح** مطالب بأن يلتزم ضوابط التصوف ليحقق حرية تبدأ بتوبة يليها مجاهدة النفس بإفراغ القلب من رق الدنيا وعبوديتها وهوى النفس وإعماره بالعبودية التامة والخالصة لله عزوجلّ وفيها يقول بشر الحافي: "من أراد أن يتذوق طعم الحرية ،ويستريح من العبودية، فليطهر السريرة بينه وبين الله تعالى" (عواد محمود عواد سالم، صفحة 649) فطُهر السريرة ونقائها موقوف على جهاد النفس وهو الجهاد الأكبر الذي ينتصر فيه الإنسان على نفسه ويسمو بها فوق المطالب الدنيوية وما تألفه النفس من ملذات وشهوات، وقد عرف ابن العربي المجاهدة بأنها "حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال" (محي الدين بن عربي، د ت، صفحة 17) إنها تجمع بين الجهاد البدني والجهاد الروحي، لتكبح نزوات النفس والقلب وتخمد نوازعهما السلبية التي تحيد بهما إلى الانحراف وإتباع الهوى.

عزم "**الهاشمي المشلح**" على التخلي عن كل شواغل الدنيا حتى أنه فارق الأهل والأصحاب "عدت إلى المدينة بعدما قضيت شهرا كاملا في السياحة .زرت أضرحة عديد الصلحاء(...) توجهت في ثم استقلت الحافلة المتوجهة إلى مدينة تلمسان(...) قضيت سبعة أيام في مسجد سيدي بومدين" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 97) ويضيف أيضا"بعد ثلاثة أسابيع من عودتي إلى بيتي تاق قلبي إلى السياحة" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 105) بذل جهده ووقته في التنقل والسفر لزيارة الأضرحة التزاما بتعذيب الجسد باعتبار أنه قتل رمزي في فلسفة المجاهدة النفسية،وحمل النفس على المشاق باعتبارها الأوجب بالجهاد والفطام عن الرغائب الدنيوية ليصل إلى تحقيق الكمال المرغوب في قربه لله عز وجل .

وفي ذلك ينتقل **الهاشمي المشلح** من مقام إلى مقام بفضل المجاهدة النفسية والتي جوهرها تطهير وتنوير القلب وتهذيب النفس وتربيتها على التحلي بالأخلاق الفاضلة والتخلي عن المذموم منها، وهذه فلسفة لابد من التزامها في طريق الرحلة الصوفية لينال الانتقال بين المقامات،فكان الانتقال من مقام التوبة إلى الزهد "بخلو الأيدي من المملوك والقلوب من التتبع" (شهاب الدين السهروردي، د ت، صفحة 282) ليسلمه إلى مقام الفقر " بمعنى أن يشعر رغم ماله وجاهه بحاجته وبعجزه وبفقره إلى الله سبحانه وتعالى".(حسن شرقاوي، 1987، صفحة 226) ثم يليه مقام الصبر الذي يلازم **السالك المريد/ الهاشمي** على امتداد رحلته وهو " جار فيه مجرى الأنفاس،لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منهي ومكروه، ومذموم ظاهرا وباطنا. (شهاب الدين السهروردي، د ت، صفحة 284) فالترقي في المقامات لا يتأتى إلا بالمجاهدة النفسية للسفر بالروح والذات نحو النورانية وتطهير ها من كل الشوائب التي تكدر صفهوها، فتتحقق بمعاني الكمال وسمو الأخلاق.

2 .3السياحة في البراري والخلوة:

كانت السياحة في البراري وسيلة "**الهاشمي المشلح**" للتأمل واعتزال الناس والخلوة بنفسه، فآثرهما على دفء العائلة ووثير الفراش وقرب الزوجة " لأن في الاغتراب إحساس بتغير عوائد النفس فضلا عن مزيد من البعد عن الأولاد والأحباب" (حسن شرقاوي، 1987، صفحة 174) تطلعا لاستجلاء الروح/القلب من اللوث الذي

يشوبهما ويحول دون الوصول إلى تزكيتهما وتهذيبهما، وهما(السياحة والعزلة) من المراحل التي يجتازها المريد السالك في طريق التصوف اختيارا، تدرجا في منازل العروج إلى قمة الصفاء، والمثل العليا التي تحقق له الكمال الموصل إلى الغاية الكبرى في مسلكه وهي الكشف والفناء، وما السياحة والخلوة إلا مرحلتان عبدّت له الطريق في رحلة سفر الباحث فيها عن ذاته والتي يستعين فيها "بأربع هنّ أساس بنياته ،وبها قوة أركانه،أولها الجوع ثمّ السهر،ثمّالصمت،ثمّ الخلوة والعزلة" (أبو طالب مكي، 2001، صفحة 273) هي أساس لتطويع النفس على تحمل المصاعب والمشاق، وترقيق القلب للسير طوعا وحبا لله عز وجل والأنس بالعبادة،ومفتاح ذلك كله الصبر والتصبر لتحقيق معنى المجاهدة النفسية .

وقد عُرفت السياحة عند الصوفيون بأنها "سياحة السالك ومفارقته الأوطان لتصفية القلب بالعبادة والذكر والتفكر" (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) ، فقد عزم **الهاشمي المشلح** على التزام السياحة في البراري والزيارات، ففارق المكان وانكشف عنه طلبا لتحقيق المتعة الروحية والفائدة فـ"بعد تلك الحضرة الإلهية التي أدخلتني عالما سحريا، أخذت بنصيحة المقدم الحاج مجذوب الذي حدّثني على السياحة،فزرت ضريح سيدي أمحمد بن عودة ....صرت أعرف منطقتي حجرة حجرة.زرت كل أضرحة الأولياء الصالحين وتعرفت على سيرهم العطرة وعلى إنجازاتهم العلمية." (محمد مفلاح، 2014، صفحة 94_95) فاكتشف القبب وأضرحة الأولياء وتعرف على سيرهم ومناقبهم وكراماتهم، وكانت متنفسه الذي يمنح للروح استقراها (بعد دقائق طويلة من التأمل في هذا الكون الفسيح نهضت خفيفا(..)نزلت من على قمة الجبل وقلبي يفيض محبة" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 104_105) فالقلب يصفو بالتأمل في الكون، ويكشف له الحقائق ويعرج بروحه إلى عنان السماء،وهذا المقصود من السياحة التي يتواشج فيها سفر الروح والبدن بمجاهدة النفس وتعذيب الجسد وحمله على مكابدة المشاق والإرهاق، وفي ذلك غاية المتعة القلبية التي تطهره وتقربه زلفى إلى الحق تعالى، وفي ذهنه كلما زاد التعب والمجالدة ذابت المسافة بينه وبين الخالق وفي هذا يقول **الهاشمي المشلح** لوالدته: "لما وصلت إلى مدينتي زرت والداتي (...)فاحتضنتني قائلة: ماذا جرى لك ياولدي؟ وجهك شاحب وشعرك غزاه الشيب.ثمّ وضعت يمناها على جبيني وهي ترجوني أن أستريح قليلا .كانت قلقة عليّ من أسفاري الكثيرة إلى المدن والبراري،لم تكن نعلم أنني أصبحت من السائحين، ثمّ أضافت بحيرة :أخشى أن ترهقك هذه الأسفار الطويلة.

قلت لها: السفر كما قال سيدي الشيخ، يسفر عن معدن الإنسان.الحمد لله الذي هداني إلى طريق الحق." (محمد مفلاح، 2014، صفحة 99_100)

فحين ينجلي معدن الجسد والروح ويزول عنهما الصدأ، يحدث الخلاص من طينية الأرض وماديتها والتحليق في ملكوت الصفاء السماوي.

ولا تكتمل السياحة في البراري إلا باقتناص لحظات من الخلوة/العزلة، وتعرف عند الصوفيين بـ" انفراد القلب بالله وقد يراد بها الخلوة التي هي انفراد القالب عن الناس ،إذ لا ينفرد القلب في الغالب إلا إذا انفرد القالب (أحمد بن عجيبة الحسني، د ت، صفحة 57) فهي ضرورية للمريد السالك للاستئناس بالله تعالى، والبعد عن

مخالطة الناس، إذ تتضافر مع السياحة لصقل الروح وتخليصها من مادية الحياة ويحرران **الهاشمي المشلح** من سجنها، ليبنى عالمه النوراي الخاص وهو في ذلك يقترب من ذاته ويستمدد لها النورانية ليتقلع جذور السواد ونوازع الشر في نفسه " فالعزلة تحيي القلب وتنقيه من كل دنس، أبعدتني عن مخالطة الخلق وأرشدتني إلى طريق المحبة" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 103) اعتزال القلب والقالب عن الخلق يحقق الفائدة المرجوة من العزلة في تطهير القلب وسيره في الطريق الصحيح الموصل إلى المحبة "وانتقلت إلى الخلوة الشهيرة بالعبادة (...) قضيت وقتا طويلا متأملا حياتي الجديدة فجأة غفوت رأيت خلال تلك اللحظات نفسي وهي تسبح في السماء بين أسراب طيور بيضاء صغيرة الحجم، ثمّ احتضنتني غيمة تحولت إلى أمطار غزيرة، ثمّ أيقظتني نسمة باردة وخفة نهضت، وغادرت الخلوة وأنا في غاية السّعادة. لمت نفسي على غفلتي السّابقة.كيف قضيت حياتي الماضية بعيدا عن هذه المعالم التي تشحن النّفس بمشاعر قوية تسافر بك إلى ملكوت الصفاء (محمد مفلاح، 2014، صفحة 95) الرؤيا عند الصوفي نوع من **الكشف** وهو "بيان ما يستتر عن الفهم فيكشف للعبد عنه حتى كأنه يراه رأي العين" (نظلة الجبوري، 1999، صفحة 166) إنها برهان على ترقي **الهاشمي المشلح** في المقام، وسيره في المسلك الصحيح لرحله سفره في بحثه عن الذات، فالرؤيا لا تتاح لأيّ مريد، بذل **الهاشمي** الجهد وتحمل المشاق صابرا على الالتزامات الصارمة لاستفاء مراسيم المقام، فنال الجزاء ولعل في تعبير المطر تطهير من الذنوب كانت قطرا وبشارة بحياة مليئة بالخصب والخير الكثير، تطهّر من الآثام التي غلفت قلبه وعرقلت سيره إلى الله تعالى، تحرر منها فتحررت الروح من سجن الشهوات والنزوات وصفت السريرة، فكان التخفف والتحليق في السماء لتحقق المراد السعادة والانتشاء، إنه الانتصار على النفس وكل ما يجتذبها إلى السفل/الأرض، وذاك **مقام الإشراق ونور القلب**الذي"يهتدي به العبد إلى ما هو خير وحق وجميل في أمور دينه ودنياه ولهذا يقول بعض الصوفية أنّ من عصى قلبه فقد عصى ربه وذلك لأن القلب عند الصوفية مركز إشراق ومركز عرفان معا (أبو العلاء العفيفي، 2017، صفحة 292) تغلغل الإشراق في الروح والقلب، ليشع بنوره على الذات .

كانت البدايات بالتوبة والمجاهدة النفسية والصبر، وهاهي النهايات تلوح في الأفق، فرحلة البحث عن الذات على مشارف الظفر بمبتغاها المنشود و غايتها القصوى.

2. 4 الرحلة الأخيرة:

تشبعت نفس/ روح **المشلح** بالنور **والمحبة الربانية**وهي"الابتهاج بشهود الحق وتعلق القلب به معرضا عن الخلق معتكفا على المحبوب بجوامع هواه غير ملتفت إلى ما سواه"(عبد الرزاق الكاشاني، 1992، صفحة 207) بعدما حررها من نوازع هوى النفس وملذات الدنيا وشهواتها واعتقها من التعلق بالعالم المادي ومغرياته، فحمل النفس على المكاره و كسر شوكتها وأخضعها لإرادة الله تعالى ميمما وجهه تجاه حياة جديدة متطلعا فيها إلى بلوغ الغاية القصوى من رحلته الباحث فيها عن ذاته، وهاهو يقف وقفة تأمل يضع فيها حدا فاصلا بين عهدين "قضيت وقتا طويلا متأملا حياتي الجديدة (...) وغادرت الخلوة وأنا في غاية السّعادة. لمت نفسي على غفلتي

السّابقة.كيف قضيت حياتي الماضية بعيدا عن هذه المعالم التي تشحن النّفس بمشاعر قوية تسافر بك إلى ملكوت الصفاء" (محمد مفلاح، 2014، صفحة 95) عهد مضى يأسف(مقام الندم) فيه على ذاته الضائعة والحائرة والمشتتة والغافلة عن المعنى الحقيقي للحياة، سجن ذاته/نفسه في الوظيفة التي خلق منها عالمه الخاص وأنفق جهده وماله لاهثا وراء متطلبات الحياة المادية والأسرة ،ثمّ أنهك قلبه وروحه بعبء المشاعر السلبية،ففقد سلامه الداخلي والخارجي ،وتلوح له بارقة أمل في العهد الجديد(الحاضر/المستقبل) يسعد وسيسعد فيه بالتصالح مع الذات، صار يصبو إلى ذات تنغمس في ما هو أبقى وأدوم (الخلود) بعد الفناء في الذات الإلهية كما يرغب ويعتقد.يتلذذ بالألم والشقاء في صبر وشوق للحظة الكشف والفناء، فالكمال قبلته المنشودة أيا كانت معاناة الطريق وأهواله .وتصل غاية الرقاء الروحي إلى مستقرها الأخير، أين تفضي إلى نقطة التقاء رحلتي البحث عن الذات والتطلع إلى الفناء/ الخلود، إنها لحظة النوبة التي يأمل الهاشمي بلوغها (وفي اللحظة التي خرجت فيها من المقبرة رأيت شيوخا ذوي لحى طويلة يلبسون الأبيض، أشاروا إليّ أن أسرع قبل فوات الأوان قلت في نفسي: " هذه نوبتي حمدت الله تحركت في اتجاههم ولكنهم ابتعدوا عني قليلا .أسرعت الخطى نحوهم طاروا على بعد مسافة قصيرة ثم حطوا على ربوة تغطيها أعشاب الزعتر وشجيرات القندول والضرو ركضت للحاق بهم. طاروا مرات أخرى فجريت خلفهم. قطعت سهولا ووديانا وجبالا ودخلت غابات ودواوير وقرى كثيرة، اعترض طريقي رجال وأطفال،وعرضوا عليّ الماء واللّبن والخبز والقهوة والخبيز، ونبحث فيّ كلاب شرسة كما صادفت طيورا وحيوانات كثيرة لم أشعر بأي خوف. جريت أكثر خلف هؤولاء الشيوخ المباركين.عرفت أنهم الرجال الذين أحبهم .قررت ألا أتراجع حتى ألتقي بهم.إنهم يريدون اختبار إرادتي صحت : "يا رجال الله" تردد صدى صيحتي المرتجفة في جبال الظهرة السامقة تبعتهم..جريت خلفهم ،جريت وجريت حتى طرت صرت عصفورا مغردا في سماء صافية فسيحة شعرت بسعادة غامرة وأنا أسبح في الفضاء الجديد الذي أحببت البقاء فيه ،رافضا العودة إلى هناك.. إلى دنياهم، إلى أوهامهم .أنا الآن هنا ..أراهم فقط ..فوداعا يا أحبتي.. وداعا." (محمد مفلاح، 2014، صفحة 107)

فمن رحلة بحث مضنية عن الذات المفقودة والحائرة المرتبكة انتقل إلى البحث عن ما هو أسمى وأرقى في رحلة البحث عن الفناء/ الخلود لتفضي إلى لحظة الكشف التي تحدث ببصيرته القلبية في رؤية معنوية يلامسها وحده فقط دون غيره. إنها لحظة الخلاص من رق الدنيا و فساد الأرض والعود إلى الأصل صفاء السماء وصلاحها، فالإنسان بطبعه" مكون من جسد ينزع إلى الشهوات والعودة إلى أصله الخسيس، وروح نزّاعة إلى الطهر والعودة إلى أصلها الرفيع والرقي إلى واهبها" (فريد الدين العطار النيسابوري، 2002، صفحة 83) فالهاشمي قدّم قربان الطاعة والالتزام سائرا في طريق غماره التضحية وركوب الصعب، بين تخلية وتحلية انتقل بين الثنائيات الضدية عتمة/إشراق، راغب/زاهد ، دنيا/ الآخرة، الراحة / التعب،روح/جسد، رق/حرية ملذة/ ألم، فناء/ خلود . بدأت

الرحلة بشرخ في الذات فعثت بها العتمة والظلام وطوحت بها في مسلك التيه والضياع والعدوانية، فصارت تنشد الخلاص والانعتاق من لياليها الحالكة السواد ،ساعية إلى التحرر من عبودية النفس وسجن الدنيا ومتعها ومغرياتها، فانتقلت بين المقامات والأحوال وسلاحها مجاهدة النفس "حتى تتخلص من كل العلائق وتتطهر" (فريد الدين العطار النيسابوري، 2002، صفحة 100) وتحقق الافتقار إلى الله وتستغني به عن ما سواه، وصولا إلى الغاية المنشودة وهي لحظة **الفناء/ البقاء**بـ"سقوط الأوصاف المذمومة عن السالك أو المريد الصادق، والبقاء هو قيام الأوصاف الخيرة والنية الصادقة للسالك أو المريد الصادق، ويقال عنه أنه فني عن الخلق، وبقي بالحق، أي فني عن بشريته وبقي مع الله ولله وفي الله بروحانيته." (حسن شرقاوي، 1987، صفحة 227_228) هذا الفناء الذي يمثل موتا مجازيا يحمل في طياته حياة جديدة مشرقة **للصوفي / الهاشمي المشلح**، إذ أنه يفني كل رغبة في الدنيا ليحقق البقاء في الآخرة الخلود، وتلك السعادة الأبدية الكبرى التي يتوق إليها بعيدا عن تفاهة الدنيا الفانية وأوحالها.وبذلك لخصت الرحلة علاقة الهاشمي بالله تعالى في ظل صراعه مع ذاته، وهو الصراع الأزل الذي لا ينتهي (صراع الإنسان مع ذاته).ولعل المؤلف يمرر رسالة ينتصر فيها للنسق الروحي في توجه **الهاشمي المشلح** نحو التصوف لتحقيق الأمن والسلام (للروح ،النفس، القلب، الذات) ، وينتقد ضمنا سطوة العالم المادي الذي صنع إنسانا معاصرا يعاني القلق والتوتر والشتات والاكتئاب " وإن تفن نفسك ذات يوم فستصبح في إشراقة حتى ولو كانت الليالي كلها حالكة " (فريد الدين العطار النيسابوري، 2002، صفحة 120) الإيجابي في رحلة البحث عن الذات أنها أفضت لتحقيق المنى والمبتغى، وهو الفناء والبقاء بعد الفناء(الخلود) وأشرقت الروح بعد فترة الليالي المظلمة التي تكبدّ وجعها **الهاشمي المشلح**، وشتان بين ألم في سبيل الضياء وألم في ظل الظلمة، غير أنّ ما يؤاخذ على نزوع **الهاشمي المشلح** إلى التصوف كان اعتزالا وانقطاعا عن الدنيا برمّتها(لقد تخليت لها عن كل شيء. سلّمت لها دفتر الصكوك وكلفتها بسحب منحة تقاعدي من مركز البريد) (محمد مفلاح، 2014، صفحة 100) وهذا جنوح عن الوسطية المطلوبة لتحقيق التوازن بين متطلبات المادة والروح لتكتملا في خليط الإنسان بما يحقق راحته وسكينته في جميع النواحي الحياتية، بالموازاة مع تفاعل الإنسان مع واقعه ومجتمعه، لتجسيد الخلافة المنوطة به.

الخاتمة:

وختاما بعد هذه الرحلة السريعة في ثنايا النص الروائي " **سفر السالكين** " والتي أفضت إلى رصد تحولات الذات المصاحبة لرحلة السفر الصوفي، بصفتها تجربة فردية تختلف من شخص إلى آخر،تسافر فيها الذات في رحلة من التبدل والتحول في المكان، الزمان، النفس ،الغاية والرؤية. فكانت النتائج المستخلصة الآتية:

– إنّ رحلة السفر الصوفية التي سلكها الهاشمي المشلح في بحثه عن الذات، مثلتها رحلة حياته اليومية التي تنقل فيها بين محطات متعددة أبانت عن رغبته في التغيير للتحرر والانعتاق من شهوات الذات و العلائق الدنيوية.

– الإيجابي في هذه الرحلة الصوفية يكمن في تحقيق المبتغى المنشود بإشراق روح صاحبها بعد ليال مظلمة واغتراب نفسي ممض، بالمقابل كان لها جانب سلبي حاد بالذات عن تحقيق التوازن المطلوب بين الحياة المادية والمعنوية الروحية، حيث آثر الهاشمي الاعتزال والانقطاع عن الدنيا بدل التفاعل مع واقعه ومجتمعه.

–نزع الهاشمي المشلح نحو تصوف طرقي بدعي أساسه التدين الشعبي، وهو في ذلك مخالف للتصوف السني الموافق لتعاليم الدين الإسلامي وضوابطه الشرعية.

إحالات البحث:

المصادر والمراجع

أحمد بن عجيبة الحسني. (د ت). إيقاظ الهمم في شرح الحكم. (مراجعة محمد أحمد حسب الله، المحرر) القاهرة: دار المعارف.

إبن منظور. (د ت). *لسان العرب*. القاهرة: دار المعارف.

أبو العلاء العفيفي. (2017). التصوف الثورة الروحية في الإسلام. القاهرة: أقلام للنشر والتوزيع.

أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري. (د ت). الرسالة القشيرية. القاهرة: دار جوامع الكلم.

أبو طالب مكي. (2001). قوت القلوب في معاملة المحبوب، وصف طريق المريد في مقام التوحيد (الطبعة الأولى). القاهرة: مكتبة دار التراث.

أحمد علي فلاحي. (2013). *الإغتراب في الشعر العربي، في القرن السابع هجري_دراسة اجتماعية نفسية_*. الأردن: دار غيداء للنشر والتوزيع.

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. (بلا تاريخ). *موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة أعده للشاملة عويسيان التميمي البصري*. (مصر، عدد الأجزاء 01، المحرر) تم الاسترداد من https://al-maktaba.org/book/31586/380.

أمال زعيم وآخرون. (2020). الإنسان في الفكر الصوفي.برلين- ألمانيا: *المركز العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية*،.

إيمان عماد. (28 ديسمبر، 2018). *لماذا يصاب البعض بمرض العزلة الإجتماعية وما هو؟* تم الاسترداد من https://www.limaza.com.

حسن شرقاوي. (1987). *معجم الألفاظ الصوفية* (طبعة الأولى). القاهرة: دار المختار للنشر والتوزيع.

سعاد حكيم. (1981). المعجم التصوفي_الحكمة في حدود الحكمة_ (الطبعة الأولى). لبنان: ندرة للطباعة والنشر.

سهام خضر. (2010). الإتجاه الصوفي عند الإمام أبي حامد الغزالي (المجلد طبعة الأولى). لبنان: دار الكتب العلمية.

شهاب الدين السهروردي. (د ت). عوارف المعارف. (تحقيق عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، المحرر) القاهرة: دار المعارف.

عبد الرزاق الكاشاني. (1992). إصطلاحات الصوفية (المجلد طبعة الأولى). القاهرة: دار المنار للنشر والتوزيع.

علاء جعفر حسين وأخرون. (2015). التصوف أبحاث ودراسات (المجلد طبعة الأولى). الرباط: دار الأمان.

علي حرازم المغربي برادة. (2017). جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني (المجلد الجزء الأول). لبنان: دار الكتاب العالمية.

عواد محمود عواد سالم. (بلا تاريخ). الحرية عن الصوفية دراسة تحليلية. مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية(العدد 40)،.

فريد الدين العطار النيسابوري. (2002). منطق الطير. (محمد بديع جمعة، المترجمون) لبنان: دار الأندلس للنشر والتوزيع.

محمد مفلاح. (2014). سفر السالكين (المجلد طبعة الأولى). الجزائر: دار الكوثر للنشر والتوزيع.

محي الدين بن عربي. (د ت). إصطلاحات الصوفية. القاهرة: مكتبة عالم الفكر.

نذير العظمة. (1982). المعراج والمز الصوفي "قراءة ثانية للتراث". لبنان: دار الباحث.

نظلة الجبوري. (1999). نصوص المصطلح الصوفي في الإسلام. بغداد: بيت الحكمة "السلسلة الفلسفية".

نيقولاي برديائق. (1960). العزلة والمجتمع. (فؤاد كامل عبد العزيز، راجعه علي أدهم، المترجمون) القاهرة: مكتبة النهظة المصرية.

وفيق سليطين. (1مارس، 1996). في خطاب الرحلة: الرحلة الصوفية وفضاء الطبيعة. *مجلة المعرفة*،العدد 390.

وفيق سليطين، علي ديوب. (2018). الرحلة في الشعر الصوفي. *مجلة دراسات في اللغة العربية وأدابها*،العدد 26